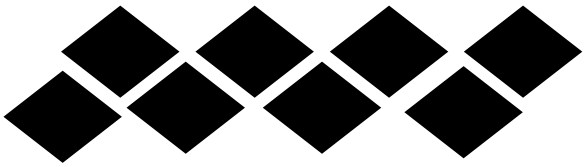

مظاهر الحداثة

فى الدرس الحجاجى لدى القدماء

مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

د./ هند رأفت السيد عبدالفتاح

مدرس علوم اللغة-بكلية الآداب- بجامعة عين شمس

مظاهر الحداثة فى الدرس الحجاجى لدى القدماء

لعل أهم ماينبغى الالتفات إليه أن الدرس العربى القديم قدقدم تراثا حجاجيا لغويـــا قيما من خلال دراسات علماء اللغة والبلاغةوأصول الفقه ، وقد حازت هذه الدراسات قصب السبق فى التوصل لمفاهيم حجاجية توازى المفاهيم اللغويةالحديثة فى الحجاج.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة فى كونها تؤسس لاستقراء الدرس الحجاجى القديم فى التراث العربى ،بوصفه قد قدم نظرية حجاجية لغوية مكتملة الأركان ، خاصة من خلال الجهوداللغوية لعلماء أصول الفقه ؛إذقدموا العديد من المفاهيم الحداثية المتصلة بالحجاج والتى لم يلتفت إليها العديد من الباحثين

هدف الدراسة:

وتهدف هذه الدراسة إلى استجلاء أوجه التشابه والتقاطعات بين الدرس الحجاجى العربى كماجاء فى كتب القدماء وبين النظريات الحديثة فى الحجاج. فى محاولة تهدف إلى تأصيل المفاهيم الحجاجية الحديثة وتعريبها من خلال النظر فى مظانهافى الدرس القديم.

مشكلة الدراسة:

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن السؤال التالى :

هل كان الدرس الحجاجى القديم لدى العلماء العرب يتضمن تيارات حداثية تصلح لأن تكون نواة للتيارات الحديثة في الدرس الحجاجى وهل يمكن رصد هذه التيارات وترسيمها في مفاهيم محددة.

الـــدراســـــة:

مفهوم القصد :

لعل أهم ما يسترعى الانتباه عند الولوج إلى رصد المفاهيم التراثية التى تحمل نواة حداثية فيما يخص الدرس الحجاجى أن مفهوم القصديمثل أول هذه المفاهيم ، بوصفه رافدا من روافدالمعنى فى تعريف الحجاج .

ذلك أن القدماء يعللون لمعنى الحجاج بأن الحجة "إنماسميت حجة لأنها تحج أى تقصد لأن القصد لها وإليها "[١] على حد قول الأزهرى ، وأصل "الحج هو القصد ... وحججت فلان إذا أتيته مرة بعد مرة ، ورجل محجوج أى مقصود"[٢]

ومفهوم القصد المكتن فى معنى الحجة يتفق مع معنى القصد الذى أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : (قل فللهالحجة البالغة)[٣] بمعنى " أنها تبلغ مراده "[٤]؛ أى قصده.

وقد تطور مفهوم القصد من كونه رافدا من روافد المعنى فى مفهوم الحجاج إلى خصيصة تداولية فى إطار الرسالةاللغوية الحجاجية وذلك عند علماء أصول الفقه .

حيث عبرواعن القصد بمفهوم الجهة ، وقرنوه باستخراج المعنى على سبيل الاستدلال مع مراعاة أن هذا الضرب من الاستدلال الأصولى يختلف جذريا عن الاستدلال المنطقى .

ذلك أن الاستدلال الأصولى يمثل استدلال لغوى يتقوم من خلال العديد من الأساليب اللغوية ، كما أنه استدلال بلاغى يتقوم مرات أخرى من خلال المجاز ، كما أنه استدلال مقامى يتقوم من خلال المواقف فوق اللفظية ، على ما سأفصل فيما بعد.

وعلى هذا فقد عرفوا الحجاج بقولهم " الحجاج يعد علما من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال."[٥]

فعرفوا الحجاج بالاستدلال ، ثم ربطوا الاستدلال بالقصد من خلالقولهم " فكل استدلال هواستخراج للمعنى من جهة شئ من الأشياءإمابالسؤال وإماما كان بمنزلة السؤال "[٦].

---

(1). الإفريقى ، ابن منظور ، لسان العرب ، ج٢ ، ص٢٢٨

(2).نفسه ،ج٢،ص٢٢٨

(3). القرآن الكريم ، سورة الأنعام / ١٤٩

(4).الألوسى ،روح المعانى ، ج٩ ، ص٢٠

(5). الباجى ، أبو الوليد ، المنهاج فى ترتيب الحجاج ، ص٩١

(6). أبو الوفاء ، ابن عقيل ، الواضح فى أصول الفقه ، ج١ ،ص٤٥٤

فجهة استخراج المعنى المذكورة فى التعريف تشير إلى قصد المتكلم ومراده فى التعبير الأصولى ، وفى هذا يقول ابن القيم " الألفاظ لم تقصد لذواتها وإنما يستدل بها على مراد المتكلم ، والعبرة بإرادة المتكلم لا بلفظه "[٧]

ولا شك أن اتصال مفهوم الحجاج بمعنى القصدعندعلماء الأصول إنما يشير إلى بعد حداثى ، إذإن القصد فى إطارالرسالة اللغوية لا يكون إلا بين مرسل ومتلقى ، وقدعد دى بوجراند القصديةإحدى معاييرالنصية السبعة .

حيث رأى كل من دى بوجراند ودريسلر " أنه يتوجب على منتج النص أن يكون قادرا على توقع استجابات المتلقين ويخطط لتوجيه النص نحو مقاصد معينة "[٨] .

والملاحظ أن القدماء لم يكونوا بمعزل عن هذا الفهم الذى يضمن دور الحجاج فى تغييرمعتقدات المتلقى بما أننا فى مقام الحجاج . حيث قدموا للحجاج تعريفا يتقوم من خلال الأثر الحجاجى.

وهوتعريف إجرائى يضمن عملية التواصل بين المرسل الذى يقوم بالفعل الحجاجى أو السؤال الحجاجى وبين المتلقى الذى يستقبل هذا الفعل و يتمركز حول نقل المتلقى الذى هوالخصم من مذهب إلى مذهب من خلال الإقرار للمتلقى بصدق حججه عن طريق الشهادة للمعنى أنه حق وذلك بعد أن يتمكن المعنى من نفس المتلقى .

وعلى هذا فقد عرفوا الحجاج بقولهم هو "نقل الخصم من مذهب إلى مذهب وقيل من مذهب إلى غيره بطريق الحجة "[٩] ثم قالوا:

" وكل حجة فإن تأثيرها هو تمكن المعنى فى النفس بالشهادة له أنه حق "[١٠]

يقصدون بذلك تمكن المعنى فى نفس المتلقى ، لكى تتم العمليةالتواصلية بتقوم الفعل الحجاجى من خلال التأثير فى الآخر؛ هذا التأثير فى الآخر يكون متمثلا فى فعل الإذعان

---

[٧].ابن القيم ، إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ت: محمد عبدالسلام ابراهيم ،بيروت ، دار الكتب العلمية ،ط١،١٩٩١،ج١،ص١٦٧

[٨]دى بوجراند ،روبرت الان ودريسلر. مدخل إلى علم النص (مطبعة القاهرة ، دار الكتاب ، ط١) ص١٣٢

[9]ابن عقيل،أبو الوفاء ، الواضح فى أصول الفقه، ج١ ، ص٢٧٩

[10]نفسه ، ج، ص٣٤١

والقبول؛ هذا الإذعان والقبول لا يتم إلا من خلال قناة الاتصال وهى اللغة بحيث يمثل هذا التأثير بالإذعان والقبول تصديقا لغويا نسبة إلى اللغة لأنه لم يتم إلا من خلالها.

على أساس أن " الصورة الحاصلة من النسبة التامة الخبرية تصديق قطعافإن كان حاصلا بالقصد والاختيار بحيث يستلزم الإذعان والقبول فهو تصديق لغوى "[١١]

فالقدماء قد عبروا عن الأثر الحجاجى من خلال مقولة التصديق ونسبوا هذا التصديق إلى اللغة بحيث تتماهى الوظيفة الحجاجية مع الوظيفة اللغوية بحيث يصبح كل منهما دالا على الآخر.

كما أن قولهم (الصورة الحاصلة من النسبة التامة الخبرية) يشير إلى تقوم الحجاج من خلال أنماط اللغة المختلفة إلى جانب تقومهم من خلال المعنى ، يقصدون بالصورة ، صورة المعنى وهو الأسلوب الذى تقومت من خلاله العبارة الحجاجية.

المعنى الحجاجى والمبنى الحجاجى:

"أننا نتكلم عادة بقصد التأثير"[١٢] على أساس " أن اللغة فى الدرس اللغوى الحديث تحدثت نظرية الحجاج فى اللغة عن الوظيفة الحجاجية للغة ، حيث رأى ديكرو رائد هذه النظرية تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية "[١٣]

والملاحظ أن هذا الفهم، له مرجعية فى التراث الحجاجى العربى ؛ فقدأثبت حازم القرطاجنى للغة وظيفة حجاجية ،بقوله: "لما كان كل كلام يحتمل الصدق أو الكذب إماأن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال أو الإخباروالاقتصاص"[١٤]

ولعلنا نلاحظ أن القرطاجنى قد ساوى بين معنيى الحجاج والاستدلال ، فجعل الحجاج هو الاستدلال .وهذا الفهم عند حازم القرطاجنى ، يمثل امتدادا للفهم الأصولى للحجاج ، حيث ساوى علماء أصول الفقه بين معنيى الحجاج والاستدلال على ما فصلت من قبل .

---

[11].الألوسى ، تفسير روح المعانى ،ج١ص١١١

[12] .العزاوى ، أبوبكر ، اللغة والحجاج ، ص٨ ، العمدة فى الطبع ، الدار البيضاء ،٢٠٠٦ ، ط١

[13].نفسه ، ص١٤

[14].القرطاجنى ، حازم ، منهاج البلغاء ، ص٥٥

والاستدلال الذى يقصده حازم القرطاجنى إلى جانب علماءأصول الفقه يخالف الاستدلال المنطقى المتعارف عليه فى المنطق اليونانى .

إذ إن العلماء العرب قد ربطوا الاستدلال بالمعنى الحجاجى إلى جانب المبنى الحجاجى، ليمتزج كل من المعنى والمبنى فى تقديم الحجاج.

والملاحظ أن ديكرو حين فرق فى نظرية الحجاج فى اللغة بين الحجاج والاستدلال ، وجعل كلا منهما متميزا عن الآخرإنمايشير إلى الاستدلال المنطقى الذى يعرفه الغرب نقلا عن أرسطو وتلامذته.

حيث جعل ديكرو " الحجاج مفارقا للاستدلال فهما ينتميان لنظامين مختلفين ؛ نظام مايسمى عادة (بالمنطق) و (نظام الخطاب) ، فاستدلال(القياس الحملى أو الشرطى...) لايشكل خطابا بالمعنى الذى يعطيه(ديكرو) لهذاالمصطلح ، فالاستدلال يتألف من أقوال مستقلة بعضهاعن بعض بحيث إن كل قول منها يعبر عن قضية ما... ولهذافإن تسلسل الأقوال فى الاستدلال ليس مؤسسا على الأقوال نفسها ولكنه مؤسس على القضايا المتضمنة فيها"[١٥]

وتحديدا فإن نظرية الحجاج فى اللغة لدى ديكرووزميله انسكومبر ، قد اعتمدت فى الأساس على المبدأ القائل: "إن التسلسلات الحجاجية الممكنة فى خطاب ما ، ترتبط بالبنية اللغوية للأقوال وليس فقط بالأخبارالتى تشتمل عليها "[١٦]

حيث اهتمت هذه النظرية " بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية التى يتوفر عليها المتكلم وذلك بهدف توجيه خطابه وجهة ما ، تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية"[١٧]

وفى هذا تشير الباحثة إلى أن نظرية الحجاج فى اللغة تقترب من النظرية العربية التراثية فى الحجاج. مع مراعاة أن العرب كانوا أسبق زمنا فى ربط الحجاج بالأبنية اللغوية المختلفة .

---

[15] العزاوى ، أبوبكر، الحجاج والمعنى الحجاجى ، سلسلة ندوات ومناظرات بعنوان التحاجج طبيعته ومجالاته ،منشورات كاية الاداب ، الرباط ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ص٥٧

[16]. العزاوى ، أبوبكر ، اللغة والحجاج ص٧

[17].العزاوى ، أبوبكر، اللغة والحجاج ص١٤

يقول أبو الوفاء على بن عقيل :

"وكل حجة فإن معناها قد يمكن أن تختلف الصورة الدالةعليه ، فمرة تكون فى صورة الخبر وهو الذى عليه المعتمد ومرة تكون فى صورة الاستخبار ومرة تكون فى صورة الأمر و مرة تكون فى صورة النهى وكل ذلك يحصل به فى النفس معنى يشهد بمعنى آخر"(١٨)

ولا شك أن الصورة التى تحدث عنها أبو الوفاء ابن عقيل إنما يعنى بها الأساليب اللغوية المختلفة ، حيث أشارإلى الأسلوب الخبرى بالحجة التى تأتى فى صورة الخبر ، كما أشار إلى الأسلوب الانشائى ، من خلال حديثه عن الحجة التى تأتى فى صورة الأمر ، والحجة التى تأتى فى صورةالنهى والحجة التى تأتى فى صورة الاستخبار وهوالانشاء الطلبى عن طريق أدوات الاستفهام المختلفة.

ولم يكتف القدماء بإقرار الحجاج عن طريق الأساليب اللغوية المختلفة ، بل قالوا إن الحجاج قد يتقوم من خلال أسلوب المجاز .

ومن هنا فقد فرقوا بين طريقة المنطق الأرسطى وطريقةالجدل أو الحجاج العربى فقالوا :

"اعلم أن الفرق بينهما :أن طريقة المنطق فى الحجة على تحديد المعنى واللفظ ، وليس كذلك طريقة الجدل لأنه قد يستعمل فى العبارة عن الحجة المجاز ، ويجرى على عادةأهلها فى الاتساع والإيجاز "(١٩)

على أساس أن " طريقة الجدل قد يجرى فيها التحديد ويجرى فيهاالتغيير فهى أوسع من طريقة المنطق من هذاالوجه ، وطريقة المنطق أضيق ، إذ كان لا يسلك إليهامن وجه واحد ،والمثل فى ذلك كمن قصد بلدا فوجد طرقامتشبعة توصل إليه أيضا "(٢٠)

إذن لقد حاول العلماء العرب استنفاذ وسائل اللغةالمختلفة فى تقديم الحجاج فأصبحت الأساليب اللغوية دالة على الحجاج ، بحيث تمثل الحجاج فى المبنى كماتمثل فى المعنى ،

---

(18).أبو الوفاء ، على بن عقيل ،الواضح فى أصول الفقه ، ج١ ص٣٣٨.

(19). أبو الوفاء ، على بن عقيل ، الواضح فى أصول الفقه ،ج١، ص ٣٤٩

(20).نفسه ،ج١، ص٣٤٨

فإذا كان علم المنطق يجتذب بنية لغوية واحدة وضيقة فإن علم الحجاج يجتذب العديد من البنى اللغوية.

الفعل الحجاجى والسؤال الحجاجى:

"لقد انبثقت نظرية الحجاج فى اللغة من صلب نظريةالأفعال اللغوية ،التى وضعها(أوستين وسيرل)وقد قام ديكرو بتطوير آراء أوستن بالخصوص ، واقترح فى هذا الإطار إضافة فعلين لغويين هما فعل الاقتضاء وفعل الحجاج "[٢١]

وقد أعاد ديكرو تعريف التلفظ والانجاز فى إطار الفعل الحجاجى بقوله إنه:

"فعل موجه إلى إحداث تحويلات ذات طبيعة قانونية أى مجموعة الحقوق والواجبات ، ففعل الحجاج يفرض على المخاطب نمطا معينا من النتائج ، باعتباره الاتجاه الوحيدالذى يمكن أن يسير عليه الحوار ، والقيمةالحجاجية لقول ماهى نوع من الإلزام يتعلق بالطريقةالتى ينبغى أن يسلكها الخطاب "[٢٢]

وإذا اعتبرنا أن السؤال الحجاجى يمثل فعلا من أفعال الحجاج ، فإنه سيتبين للناظر مدى التشابه بين ما قاله ديكرو عن الفعل الحجاجى وبين ماقدمه العلماء العرب فى هذا الشأن.

ذلك أن السؤال الحجاجى يصلح للانضواء تحت لواء الفعل الحجاجى خاصة مع ما أشرت إليه من اختلاف الأساليب الدالةعلى الحجاج ، فكل سؤال حجاجى مباشر يصلح للتعبير عنه بواسطة الفعل الحجاجى .

حيث جاء " فى السؤال المختص بالجدال وخروج الجواب

بحسبه فإن قال السائل للمسؤول: ما مذهبك فى حدث العالم... فهذا سؤال من جهة الصيغة والمعنى ... فإن قال :أخبرنى عن مذهبك فى حدث العالم ... فهذا وإن كان معناه معنى السؤال من حيث كان استخبارا لكن لفظه لفظ الاستدعاء والأمر"[٢٣]

فالسؤال الحجاجى عند القدماء قد يعبر عنه بلفظ الفعل ؛ هذا الفعل يصلح لأن يكون فعلا حجاجيا وهو فى هذا النص فعل أمر واستدعاء جاء فى معنى السؤال.

---

[21].العزاوى ، أبوبكر ، اللغة والحجاج، ص١٦

[22].نفسه ، ص١٦

[23].أبو الوفاء ، ابن عقيل ،ج١، ص٣٠٠

ولعلنا نلاحظ مدى التشابه بين الفعل الحجاجى لدى ديكرو والسؤال الحجاجى فى النظرية الحجاجية العربية لدى علماء الأصول ، يقول أبوالوفاء بن عقيل:

"كل سؤال ابتدأته فاتصل بما يبطل علل المجيب فى إفساده واحتجاجه فى دفعه إياه عن نفسه وبما يبين عن حقيقته ووجوبه فهو ماض على سنن لأن المتصل به مسهل طريقه مقرب من نتيجته التى فيه.

وكل سؤال ابتدأته ثم أتبعته بما يخرج عما وصفنا فهو منقطع خارج عن سننه"[٢٤] ؛ فقول ديكرو " إن فعل الحجاج يفرض على المخاطب نمطا معينا من النتائج"[٢٥]، هو نفس المعنى الذى قال به علماء أصول الفقه من أن الطريقة الصحيحة فى فعل الحجاج هى:

"كل سؤال ابتدأته فاتصل بما يبطل علل المجيب...لأن المتصل به مسهل طريقه مقرب من نتيجته "[٢٦]

وقولهم أيضا " اعلم أن سؤال الجدل الذى يقصد به نقل الخصم عن مذهبه بطريق المحاجة وبيانه أن الجواب فيه تابع للسؤال "[٢٧]

وهو نفس ما ذهب إليه ميشيل ماير صاحب نظرية المساءلة فى الحجاج حيث رأى أن السؤال الحجاجى: "يجعل المخاطب فى حالة اضطرار إلى الجواب فهو يجعل المخاطب يجيب فى الاتجاه الذى يرسمه السؤال "[٢٨]

وقد رأى العلماء العرب أن " على المجيب إذا كان السؤال مضطربا أن يعمل فى تقويمه حياطة لجوابه ،إذ كان السؤال المضطرب لايمكن أن يطابقه جواب مستقيم "[٢٩]

---

[24].أبوالوفاء ،ابن عقيل ، الواضح فى أصول الفقه ، ج١ ، ص٤٢٧

[25].العزاوى ، أبوبكر، اللغة والحجاج ، ج١، ص١٦.

[26]أبوالوفاء،ابن عقيل ، الواضح فى أصول الفقه ، ج١ ، ص٤٢٧

[27]أبو الوفاء ، على بن عقيل ، الواضح فى أصول الفقه ص٣٠٦

.القارصى ، محمد على ،البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشيل ماير (بحث ضمن كتاب أهم [28]نظريات الحجاج)ص٣٩٨

[29] .أبو الوفاء ، ابن عقيل ،الواضح فى أصول الفقه ، ج١ص٣٠١

كما رأوا أنه " ينبغى للسائل أن ينظر إلى المعنى المطلوب فى السؤال فإن عدل المجيب لم يرض إلا بالرجوع إلى جواب ما سأله عنه ، فإن كثيرا ممن لا يضبط الجدل ولا يد له فيه يسأل عن شئ فيجيب عن غيره "[٣٠]

ولعلنا نلاحظ أنه كما جعل ديكرو النتيجة تابعة لفعل الحجاج ،وكما جعل ماير الجواب تابعا للاتجاه الذى يرسمه السؤال فإن العالم الأصولى أبو الوفاء ابن عقيل قد جعل الجواب أى النتيجة تابعة للسؤال الحجاجى ، ولا يخفى حجم التشابه معاعتبارالسبق الزمنى للفهم العربى فى هذا الشأن.

الحجاج والمقام

من النظريات الحديثة فى الحجاج التى أصلت لدور المقام فى إنتاج الحجاج نظرية المساءلة لميشيل ماير حيث رأى أن الحجاج هو " التفاعل بين الكلام الصريح والكلام المفهوم ضمنامن الخطاب تبعا لاختلاف المقام ... فأدخل بذلك الحس التداولى فى مقهوم الحجاج "[٣١]

أما نظرية الحجاج فى اللغة فإنها أولا قد أغفلت دور المقام فى إنتاج الحجاج ، على أساس أن الحجاج يؤشر له فى " بنية الأقوال نفسهاوفى المعنى وفى كل الظواهرالصوتيةوالصرفية والمعجمية والتركيبية"[٣٢] ،بعيدا عن المقام وعن كل ماهوخارج اللغة .

إلا أنه فى التصورات الأخيرة لدى ديكرو نلاحظ أنه قد جعل الحجة"عبارة عن عنصردلالى يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلالى آخر ، والحجة قد ترد فى هذا الإطار على شكل قول أو فقرة أو نص أو قدتكون مشهدا طبيعيا أوسلوكا غير لفظى "[٣٣] وفى هذا استدعاء لدور المقام فى إنتاج الحجاج .

وفى إطار ما سبق أشير إلى أن علماء أصول الفقه فى إطاردرسهم للحجاج أو الجدل ، لم يغفلوا دور المقام فى إنتاج الحجاج ، جاء عنهم :

---

(30) .نفسه ،ج١ ص٣٠٢

(31).صولة ، عبدالله ، الحجاج فى القرآن الكريم ، ص٣٨،٣٩

(32). العزاوى ، أبوبكر ، ص٨

(33). نفسه ، ص١٨

"وكل حجة هى بيان يشهد بمعنى حكم من الأحكام ولا يخلو البيان الذى هو حجة من خمسة أقسام : لفظ وخط ، وعقد،وإشارة ، وحالة "[٣٤]

ولعل حديث ديكرو عن حجة السلوك غير اللفظى يتفق مع مايسمى عند القدماء بحجة الحالة ، إذ رأى علماءالأصول أن " كل حجة تجب من جهة الحس ، فهى من باب الحال لأن كل حس حال"[٣٥]

فالحال هنا يشير إلى السلوك غير اللفظى ، وهو عندالقدماء يمثل دلالة على مسارب الحس ، فحجة الحالة تنتمى إلى حيز المقام بحيث لا تتقوم إلا من خلاله.

على أساس أن حجة الحال " دلالتها تظهر بأن يكون عليهاالشئ ثم يزول أو لا يكون عليهاثم يصير "[٣٦]

ولا شك أن هذا من ملابسات المقام فهى حجة مقامية أوفوق لفظية فتكون ضوابط المقام هى مصادر الحس ، وذلك "كالمبصرات والمذوقات والأجسام والأشكال ومأشبه ذلك "[٣٧]

وقد جعلوا النصبة تشارك الحال فى إثبات المقام فقالوا:" والنصبة تشارك الحال وهى انتصاب الجسم وما يشاهدعليه من قيام وقعود وانحراف إلى بعض الجهات المحيطة به وهى ست جهات فوق وتحت وأمام وخلف ويمين وشمال"[٣٨]

ومثلوا لها بـــ " خروج الجسم من حال إلى حال تنقلب الأعراض عليه... وكخروج العين من حكم إلى حكم.. مثاله خروج الطفلة بالبلوغ إلى حيز التكليف والرشد فيستدل بذلك على تغير حال الولى من رتبةالإخبارإلى رتبة الاستئذان "[٣٩]

ومثلوا لدلالة الحال بـــ" خروج العبد بالتكاتب من حال تملك سيده لأروش خباياته وأكسابه إلى حال صار هو المالك لها ... وخروج العبد عن المالية بالحرية"[٤٠]

---

[34].أبو الوفاء ، ابن عقيل ، الواضح فى أصول الفقه ، ج١، ص٣٣١

[35]. نفسه ، ج١ ، ص٣٣١.

[36]. نفسه ، ج١ ، ص٣٣١

[37]. ابن وهب الكاتب ، البرهان فى وجوه البيان ، ص٧١

[38].ابن وهب الكاتب ، البرهان فى وجوه البيان ، ص٧٤

[39].أبوالوفاء ، ابن عقيل ، الواضح فى أصول الفقه ، ج١ ، ص٣٣١

[40].نفسه ، ج١، ص٣٣١

والحجة المقامية " فهى بمنزلة الناطقة ... من حيث يجدالعاقل معنى النطق فى نفسه عند حضور المعنى على قلبه "[٤١]

فالمعنى جاء من خلال دلالة الحال لا من خلال اللفظ فأصبحت الحجة بمثابة الناطقة وهى ليست كذلك.وقد اعتنى القدماء بحجة الحال إلى الدرجة التى جعلوا فيها السكوت نفسه حجة فقالوا " وأما السكوت ...حجة"[٤٢]

والسكوت هو مضاد التلفظ بلا شك وهو أعلى مراتب حجة الحال لدى القدماء .، فقد قالوا " أما ماثبت بقول بعضهم أو فعله وسكوت الباقين ... فذلك حجة "[٤٣]

فجعلوا سكوت العلماء حجة على ثبوت القول أو الفعل المسكوت عنده حين صدوره عن غيرهم من العلماء.

أما عن تأثير الحجة فإنه " إحضار المعنى إلى النفس بالشهادة له أنه حق...ولربما كانت الشهادة بالإفصاح وربما كانت بالتعريض فى الكلام أو فى الحال "[٤٤]أما حجة المشهد الطبيعى الذى قدمه ديكرو فقد تعرض لها الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، وجعلها حجة تخضع لدلالة النصبة ، حيث قال :

"وأما النصبة فهى الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد "[٤٥]

ثم تطرق إلى حجة المشهد الطبيعى مقتبسا قول أحدالخطباء الذى لم ينص على اسمه ، فقال :"أشهدأن السموات والأرض آيات دالات وشواهد قائمات ، كل يؤدى عنك الحجة"[٤٦]

فجعل المشهد الطبيعى وهوخلق السموات والأرض حجة على ربوبية الخالق جل وعلا.

---

(41).نفسه ، ج١، ص٣٣١.

(42). أبوالوفاء ، ابن عقيل ، الواضح فى أصول الفقه ، ج١ ، ص ٢٩٠

(43). نفسه ، ج١ ، ص٢٩٠.

(44). نفسه ، ج١، ص٣٤١

(٤٥)الجاحظ ، البان والتبيين ، ت.درويش جويدى ، المكتبة العصرية ، صيدا ، لبنان ،ط٢،٢٠٠٠،ج١ ص٨١

(46). الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج١ ، ص٨١

ومن أبلغ مايدل على حجة السلوك غير اللفظى ما جاء فى القرآن الكريم فى سورة يوسف فى قوله تعالى: ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾ [٤٧] .

فالقرآن الكريم قد صمت عن تفسير ماهية هذا البرهان أى الحجةاليقينية على نبوة يوسف ، والتى لم تكن قد أسندت إليه بعد إذ كان لازال شاباومقام النبوة فى سن الأربعين على ما كان من سياق القصة.

وترك المفسرون وأرباب التأويل يذهبون فى تفسيرها كل مذهب وكلها تفسيرات تشير إلى حجج ذات مواقف سلوكية لم يذكرها النص ، وكل مفسر حسب رؤيته واجتهاده.

فمنهم من اختار ما جاء " عن ابن عباس أنه عليه السلام مثل له يعقوب عليه السلام فضرب بيده على صدره "[٤٨] ومنه " عن قتادة أنه قال ذكر لنا أنه مثل له يعقوب عاضا على إصبعيه "[٤٩] ، و منها أنه " نودى يا ابن يعقوب لا تكونن كا لطير له ريش فإذا زنى قعد ليس له ريش"[٥٠]

أما حجة الخط فقد تحدث عنهاابن وهب الكاتب من خلال حديثه عن دور الكتابة فى تخليد النصوص ومن ثم تصبح هذه النصوص بمزية كونها مكتوبة حجة على الناس،يقول:

"إن الله تعالى ألهم عباده تصوير كلامهم بحروف اصطلحواعليها فخلدوا بذلك علومهم لمن بعدهم ... وبلغوا الغاية التى

قصدها عز وجل فى إفهامهم وإيجاب الحج عليهم ولولا الكتاب الذى قيدعلى الناس أخبارالماضين لم تجب حجة الأنبياء"[٥١]

---

[47]. القرآن الكريم ، سورة يوسف ، ٢٤

[48]. الألوسى ، تفسير روح المعانى ، ج١٢ ، ص٢١٤

[49]. نفسه ، ج١٢، ص٢١٤.

[50]. نفسه ، ج١٢ ، ص٢١٤

[51].ابن وهب الكاتب ، البرهان فى وجوه البيان ، ص٦٢

فابن وهب الكاتب قد جعل الكتابة أو الخط ، هو حجة الأنبياء لأنه لولا الكتاب الذى دون بالخط والكتابة ، لم تجب حجتهم على الناس.

السلم الحجاجى ومراتب الحجة

تحدث اللغوى الفرنسى ديكرو فى نظرية الحجاج فى اللغة عما أسماه السلالم الحجاجية بمعنى أن الحجج " تشكل سلما ينطلق من أضعف حجة حتى يصل إلى أقواها ولذلك سميت بالسلالم الحجاجية "[٥٢]

والملاحظ أن السلالم الحجاجية فى هذه النظرية تتشابه مع الفهم العربى للحجج ، إذ تحدث علماء أصول الفقه عن مراتب الحجج حيث قسموا الحجج إلى مراتب كل مرتبة هى أقوى من الأخرى وأقرب منها إلى نتيجة المحاجة .

ذلك أن رأواأن" مراتب الحجج هى مواضع المقدمات بلغة الأصوليين وهى أوصاف العلة بلغة الفقهاء ...وتكون على السياق من الأول إلى الثانى ومن الثانى إلى الثالث ومن الثالث إلى الرابع ثم على ذلك إلى آخرمقدمة " [٥٣]

فالحجة تبعا للفهم الحجاجى العربى تكون " ذات مقدمة ومقدمتين وثلاث مقدمات إلى أن تنتهى إلى نتيجة صادقة "[٥٤]

والمقدمة هى " كل ما إذا قدم فكان أولا ظهر منه ثان كائنا ما كان "[٥٥]

وقد تعرضوا إلى طريقة سياقة هذه الحجج بحيث تكون فى اتجاه صاعد من المرتبة الأقل إلى المرتبة الأعلى أو تكون فى اتجاه نازل من المرتبةالأعلى إلى المرتبةالأقل ، وذلك " أن تسوق المقدمات على طريقتين من أولها إلى آخرها ومن آخرها إلى أولها "[٥٦]

---

(52).المبخوت ، شكرى ، نظرية الحجاج فى اللغة (ديكرو) ، ص ٣٦٤

(53). أبوالوفاء ، ابن عقيل ، الواضح فى أصول الفقه ، ج١ ، ص٣٤٣

(54).أبو الوفاء ، ابن عقيل ، الواضح فى أصول الفقه ، ج١ ، ص٣٢١.

(55). نفسه ، ج١ ، ص٣٢١

(56). نفسه، ج١، ص٣٤٣

وقد نبهوا إلى الكيفية التى يكون فيها العلاقات بين أدلة هذه الحجج وهى على طريقتين أيضا الأولى " أن يشهد الدليل الأول بالثانى والثانى بالثالث ... إلى آخر مرتبة ...والآخر أن يحضر الأول الثانى والثانى الثالث إلى حيث تنتهى مراتبه "[٥٧]

وانتهاءالمراتب يكون بالحجة التى تقترب من النتيجة فكل حجة تصل إلى حجة فى مرتبة أعلى منها بمعنى أنهم قد جعلوا الحجج على مراتب كل حجة تصل إلى الحجة التى تليها حتى تصل إلى النتيجة.

، والفرق بين الحضور والاستشهاد ، يرجع إلى الطريقة المستخدمة فى استخراج المعنى الحجاجى ، لأن استخراج المعنى عند القدماء يكون : " إما بالسؤال وإما ماكان بمنزلة السؤال من الاستشهاد "[٥٨]

و"الاستشهاد يعنى الجمع بين شيئين يشهد أحدهما إلى الآخر مباشرة "[٥٩] ، فيكون الحضور خاص بالمعنى اللغوى أى اللفظى المعتمدعلى السؤال أما الاستشهاد فيختص بالمنحى المقامى والدليل فوق اللغوى بمعنى الأدلة المرئية.

مثال ذلك ماجاء فى القرآن الكريم عن قميص يوسف ،فإنه حجة على عدم موته وبرهان قطعى ويعد من الحجج المقامية.

ويخضع لطريقة الاستشهادوهو أن يأتى بشاهد أو دليل على القضية عيانا دون الحاجة إلى الكلام ، فيجيب المجيب دون أن يسأل " لأن المجيب إذا كان مستشهدا للدليل فكأنه مستخبرله مستخرج ماعنده "[٦٠]

والقضية هنا عدم موت يوسف ، ثم إن الحجة على ذلك هوالقميص وهى دليل مرئى ومن ثم تكون النتيجة هى حتمية رجوعه إلى والده يعقوب.

وهذه الحجة تشبه حجة المشهد الطبيعى عند ديكرو من باب أن القميص يدل على شئ متعين يمكن الاستدلال به وليس موقفا سلوكيا.

---

(57). نفسه ، ج١ ، ص ٣٤٣

(58).نفسه ، ج١، ص٤٥٤

(59). نفسه ، ج١ ، ص٤٥٥

(60). أبو الوفاء ،ابن عقيل ، الواضح فى أصول الفقه ، ج١ ، ص٤٥٤

خاتمة:

لعله قد استبان لنا من السرد السابق دورالعلماءالعرب القدامى فى ترسيم وإثبات نظرية لغوية حجاجية مكتملة الأركان ؛ حيث اشتملت هذه النظرية على مفاهيم حداثية تتصل بالدرس اللغوى الخاص بالحجاج.

ومن هذه المفاهيم؛ مقهوم القصد وهو مفهوم حداثى ارتبط بمعاييرالنصية كما قدمه دى بوجراند إلا أن القدماء قد قدموا هذاالمفهوم أيضابوصفه أحدمعايير النص ولكنهم قد خصصوه بالنص الحجاجى.

وقد عبر علماء أصول الفقه عن مفهوم القصد بمفهوم الجهة وتحدثوا عن دوره فى عمليةالتواصل بين الفاعل للفعل الحجاجى والمتلقى.

إلى جانب ذلك فقدتحدث القدماء عن تمثل الحجاج فى الأساليب اللغوية المختلفة ؛الأمر الذى يتفق مع الاتجاهات الحديثة فى اللغة التى تجعل الحجاج يتمثل فى البناء اللغوى كما هو متمثل فى المعنى.

حيث جعلوا الحجة تأتى فى صورة الخبر والاستخبار وفى صورة الأمر والنهى كما أنها تأتى فى صورة المجازكما فرقوا بين الحجاج العربى الذى يتقوم من خلال الأساليب اللغويةالمختلفة وبين الجدل الأرسطى الذى يقدم المعنى فى شكل محدد نمط محددوضيق العبارة.

بالإضافة إلى ما سبق فقد أثبت القدماء دور المقام فى تقديم المعنى الحجاجى من خلال ترسيم الفعل الحجاجى من خلال استشهادالدليل الذى يقوم مقام السؤال.

إلى جانب تبيين دورالمقام فى ترسيم الحجج مثل حجة المشهد الطبيعى والموقف غيرالسلوكى الذين عبر عنهم القدماء بحجة الحالة.

كذلك فقد تحدث القدماء عن مراتب الحجج وكيف تؤدى كل حجة إلى حجةأخرى حتى نصل إلى النتيجة الحجاجية ، وهو ما يتفق مع ما جاء فى نظرية الحجاج فى اللغة عن السلالم الحجاجية..

وتشيرالسلالم الحجاجيةإلى تعاقب الحجج بشكل تدريجى ،حيث تؤدى كل حجة إلى الحجة التى تليها ، مع مراعاةأن الفهم العربى جعل مراتب الحجة إما فى اتجاه صاعد

وهابط من الحجة الأدنى إلى الحجة الأعلى ، أو فى اتجاه هابط من الحجة الأعلى إلى الحجة الأدنى ، وهو الأمر الذى يختلف فيه مع الدرس الحديث الذى جعل الحجج تسير فى اتجاه واحد فقط من الأدنى إلى الأعلى.ـ

قائمة المصادر والمراجع :

١. القرآن الكريم

٢. الإفريقى ، جمال الدين بن منظور، لسان العرب ،بيروت ، دار صادر، ١٣٠٠ هـ.

٣. الالوسى، أبوالفضل شهاب الدين السيد محمود، روح المعانى فى تفسير القرآن الكريم والبع المثانى ،تحقيق: على عبدالبارى ،بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٥ه، ط١

٤. الباجى ،أبوالوليد سليمان بن خلف،تحقيق عبدالمجيدتركى، بيروت ، دار الغرب الإسلامى ، ٢٠٠١ م ، ط٣

٥.الجاحظ،أبوعثمان بن بحر ، البيان والتبيين، تحقيق درويش جويدى ، المكتبة العصرية ، صيدا- لبنان ،٢٠٠٠م ، ط٢

٦.دى بوجراند، دريسلر، مدخل إلى علم النص ، ترجمة إلهام أبو غزالة ، على خليل حمد، القاهرة ، دار الكتاب ،١٩٩٢م،ط١.

٧.صولة ، عبدالله ، الحجاج فى القرآن الكريم ، بيروت ، دار الفارابى ، ٢٠٠٧ م ، ط٢

٨.العزاوى ، أبوبكر، اللغة والحجاج ،الدار البيضاء ، العمدة فى الطبع ،٢٠٠٦م ،ط١.

٩.ابن عقيل ، أبوالوفاء ، الواضح فى أصول الفقه ، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركى ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ،١٩٩٩م .

١٠. القارصى ، محمد على ، البلغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشيل ماير ،(بحث ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج فى التقاليد الغربية من أرسطو إلى الآن)، إشراف حمادى صمود، منوبة تونس، مطبوعات كلية الآداب والفنون والعلوم الانسانية ، ١٩٨٨م ، ط.١

١١.القرطاجنى ، حازم ، منهاج الأدباء وسراج البلغاء، تحقيق الحبيب ابن الخوجة ،تونس ، الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٨م

١٢.ابن القيم،إعلام الموقعين عن رب العالمين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٩١م ط.١

١٣.الكاتب، ابن وهب ، البرهان فى وجوه البيان ، تحقيق أحمد مطلوب ، خديجة الحديثى ، بغداد ، مكتبة العانى ،١٩٦٧.

١٤. المبخوت ، شكرى ، نظريةالحجاج فى اللغة(ديكرو) ، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج فى التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ،إشراف حمادى صمود ، منوبة تونس ، مطبوعات كلية الآداب والفنون والعلوم الانسانية ، ١٩٨٨ م ، ط١.